نزيف الخصوبة.. قوة مصر البشرية تتآكل

الأربعاء 21 يناير 2026 01:00 م

كتب: عادل صبري

عادل صبري

كاتب وصحفي مصري

للعام الثاني على التوالي تُظهر مؤشـرات دولية لـ worldometer تراجعًا في معدّل الخصوبة لدى المصـريين، لتصل إلى 2.41 طفل لكل ألف نسمة، خلال عام 2025. تعكس الأرقام المدعومة من الأمم المتحدة ووزارة الصـحة المصـرية انخفاضًا في معدّل النمو السـكاني إلى ما بين 1.6- 1.4% سـنويًا، بسـبب تراجع الخصوبة وزيادة الوفيات والهجرة الصافية من البلاد، لتمثل أقل معدل نمو سكاني لم يحدث على مدى قرن ونيف، ما يعني تراجعًا رسميًا في تعداد السكان منذ تطبيق برامج تنظيم الأسرة، في ستينيات القرن الماضي.

اعتبرت الحكومة هذه الأرقام بمثابة نجاحٍ لبرامجها المدعومة من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وآخرين لسنوات طويلة، استدعت احتفاء رئيسـة المركز القومي للسـكان عبلـة الألفي بتلك المناسـبة منـذ أيام، مؤكّـدةً أن وزارة الصـحة ملتزمة بتحقيق معدل إنجاب كلّي عند حدود 2.1%، لكل سيدة بنهاية عام 2027، والذي سمّته بـ"عام التحدي"، لدفع المصريات إلى الابتعاد عن إنجاب المزيد من الأطفال. جاء احتفاء نائبة وزير الصـحة في وقت تفاخرت فيه الحكومة، ومعها البنك المركزي، بزيادة تاريخية في تحويلات المصريين العاملين في الخارج، حيث سجّلت منذ يناير حتى أول ديسـمبر 2025 نحو 37.5 مليار دولار، بزيادة 40% عن عام 2024، مع ارتفاع متوقّع ليصل إلى 45 مليار دولار عام 2026، لتصـبح المصـدر الأـول للـدخل الوطني من العملـة الصـعبة، في ظل تراجع مسـتمر للصادرات التي تمثل حاليًا المورد الأول للبلاد من العملة الصعبة، بنحو 40 مليار دولار، والمتوقّع انخفاضها، وفقًا لدراسات اقتصادية معمّقة بنسبة 22% بحلول عام 2030.

تعكس الأرقام تناقضات الحكومـة في مواجهـة تآكل القوة البشـرية التي تصـنع أزمـةً صامتـةً تهدّد الاقتصاد والأمن القومي برمّته. فالمجتمع يتحول ديموغرافيًا بطريقـة متسارعـة، بما يـدفع إلى تغيير ملامـح الدولة واقتصادها خلال العقدين المقبلين، فيما تبين المؤشـرات الأخيرة أنّ مصـر تتحرّك بسـرعة من اقتصـادٍ قـائم على وفرة القـوة العاملـة الشابـة الرخيصـة إلى مجتمـع يتجه تـدريجيًا نحو الشـيخوخة وتبـاطؤ النمو السـكاني، في وقت يعتمـد فيه بشـكل أساسـي على تحويلات المصـريين من أبناء الطبقة الوسـطى والفقيرة، بوصـفها الشـريان الأول للنقد الأجنبي، بينما الحكومة عاجزة عن جلب الاستثمارات أو الارتقاء بالتصنيع وتكنولوجيا الإنتاج الحديث.

يروّج الخطاب الرسـمي منذ سنوات لشعار "تنظيم الأسرة وخفض المواليد"، منفِّذًا برامج قاسية تحرم الأسر التي لديها أكثر من 4 أطفال من الـدعم العيني، مع تحميل النساء كلفـة هـذه السـياسات ماليًا ونفسـيًا، في وقت لا تملك الدولة خططًا لإعداد العمالة لسوق العمل وتشـغليها بالـداخل أو الخارج، ويتراجع دورها في توفير الحـد الأدنى الذي يضـمنه الدسـتور للمواطن من الرعاية الصـحية والتعليم الجيد، وتوفير ضـمان اجتماعي يحميهم من العوز، وسوق عمل قادر على استيعاب الفئات الأكبر سـنًا، لأنها لا تعتقـد بالاسـتثمار في رأس المال البشـري، الـذي هو عماد المجتمعات الراغبة في جعل سكانها القوة الرافعة للاقتصاد والابتكار ومواجهة التحديات الأمنية.

تشـير بيانات جهاز الإحصاء الحكومي إلى تباطؤ في معـدلات المواليـد، خلال العامين الماضـيين، مقابل ارتفاع متوسط العمر، ما يعني اتساع قاعدة كبار السن وارتفاع الأعباء المالية المتوقعة على الأسر والدولة في آن واحد، ومع دخول جيل الثمانينيات والتسعينيات إلى سن التقاعد خلال السـنوات المقبلـة، ستصـبح الدولـة أمام معادلة صـعبة، إذ إن عدد الداخلين الجدد إلى سوق العمل أقل، مقابل تضـخم كتلة المتقاعدين ومحـدودي القـدرة على الإنتاج، بما يفقـد مصـر الفائض الـديموغرافي الذي تميّزت به لعقود، جعلت منه "البقرة الحلوب" التي تدر الدولارات، وتعتمـد عليه في جـذب المسـتثمرين الباحثين عن العمالـة الرخيصـة، ومن يـدافعون عن الوطن ويعملون في مشـروعات صـناعية وإنتاجية مربحـة للغايـة تابعـة للخدمـة الوطنيـة مجانًا، في الوقت الـذي سـتتراجع في قاعدة دافعي الضـرائب والقادرين على تمويل صـناديق الرعاية الصـحية والمعاشـات. وبينمـا لم تتمكن الدولـة من بنـاء اقتصـاد إنتاجي عالى القيمـة، أسوة بما حـدث في دول سارت على هـذا النهـج بعنف لسـنوات مثل الصـين، والتي تراجعت عن تلك السـياسات مؤخرا، بعـد إدراكها خطورة تناقص أعدادها من نحو 1.4 مليار نسـمة إلى نحو 500 مليون نسمة قبل نهاية القرن الحالي الذي تريد أن تصبح عند قمته القوة الكبرى عالميًا.

في الـدول التي تنخفض فيها الخصوبـة تـدريجيًا، يتحوّل نقص السـكان إلى ميزة تنافسـية، عبر رفع الإنتاجيـة والأجور والاسـتثمار في التعليم المتقدّم والابتكار، كما يحدث في اليابان وألمانيا وسويسـرا وإيطاليا، ولكن الحالة المصرية تسير بعكس الاتجاه، حيث يتباطأ تعداد السكان مع تأخّر مسـتوى التعليم وعـدم القـدرة على امتلاك أو شـراء معدّات تكنولوجية تحل محل البشـر، في وقت تتراجع فيه الصـناعة والزراعة ذات القيمة المضافة من الناتج المحلي وتزداد الواردات من السـلع والتكنولوجية المتقدمة سـنويًا. يولد الاعتماد على الخارج هشاشة مالية هيكلية، تضيف مرارة إلى ما يلاقيه المصريون من تراجع بالوظائف في الخارج ومعدل الدخل بما ينعكس على مستوى ملايين الأسر المصرية وميزان المدفوعات، ومع استمرار الهجرة الخارجية من الشباب الباحثين عن وظيفة، فإن سوق العمل سيعاني من نقص حاد في العمالة.

على الضـفة الأخرى من المشـهد المروع، يمضي الكيان الإسرائيلي نحو النمو ديموغرافيًا في نسبة المواليد التي تفوق المعدلات المصرية منذ سنوات، مع اسـتقباله المسـتعمرين من أنحـاء العـالم، بزعم التجمّع في الأـرض المقدسـة للصـهاينة، إلى جانب امتلاكه اقتصادًا عالي التقنية يضاعف القيمـة المضافـة للعامل الواحـد جعلته من أكثر الأفراد دخلًا على مسـتوى العالم. تـدفع هذه المميزات العنصـر البشـري في الكيان الصـهيوني إلى أن يصـبح عنصرًا شديد الأهمية في ميزان القوى الاستراتيجية بين مصر وإسرائيل، بل وكل بلاد العرب التي تخفض عدد سكانها عبر نظام مخطط له منذ عقود من نفس الدول الداعمة للكيان الصـهيوني ماليًا وعسـكريًا، والتي تدفع إليه بمخزون بشـري يمكنه من توسيع حروبه ضد دول المنطقة ونشر مستعمراته في الأراضي العربية المحتلة.

ستظلّ المفارقة صادمة بين ما يحدث مع المصـريين من سـياسات توجه المال إلى مشـروعات تهتم بالحجر دون البشـر، وما تقدمه إسرائيل من مميزات لزيادة السـكان وتعليمهم وتأهيلهم لمزيد من الحروب الذكية القادمة ضد العرب. اللافت أنّ النقاش العام في مصر لا يزال أسير فكر نظام يعتبر "الزيادة السكانية عبئًا عليه، وليس نعمة"، توفر له السيولة بالعملة الصعبة التي تحرك شرايين الاقتصاد والأسواق بدون تعب، لأنه يريـد جني الثمار من دون أن يدرك أهمية الاسـتثمار في رأس المال البشـري، الذي يعدّ محور التنمية ودفع النمو، في بلد لم تحوله برامج تنظيم الأسـرة العقيمـة إلى دولـة منتجـة بل زاد اعتمادها على الـداعمين لخفض المواليـد، إذ أصـبحت تسـتورد أكثر من 70% من احتياجاتها اليومية من الغذاء، وتستجدي القروض ليعيش شعبها بصعوبة أمام عدو يتربص بحدوده ومقدراته.

تقارير

من "30 مليون بيضة" إلى مليون فقط.. فشل جديد لمشروع السيسي وسط غلاء ينهش الفقراء
الثلاثاء 28 أكتوبر 2025 10:20 م

تقارير

شاهد | | من تحت أنقاض غزة نطقت بالشهادة: رحلة أمريكية إلى الإيمان والمقاومة
الأحد 28 سبتمبر 2025 08:30 م

مقالات متعلقة

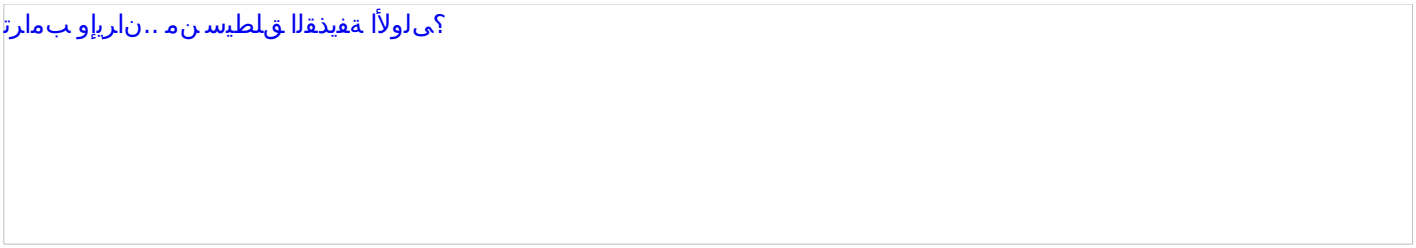

ترامب وإيران.. من سيطلق القذيفة الأولى؟

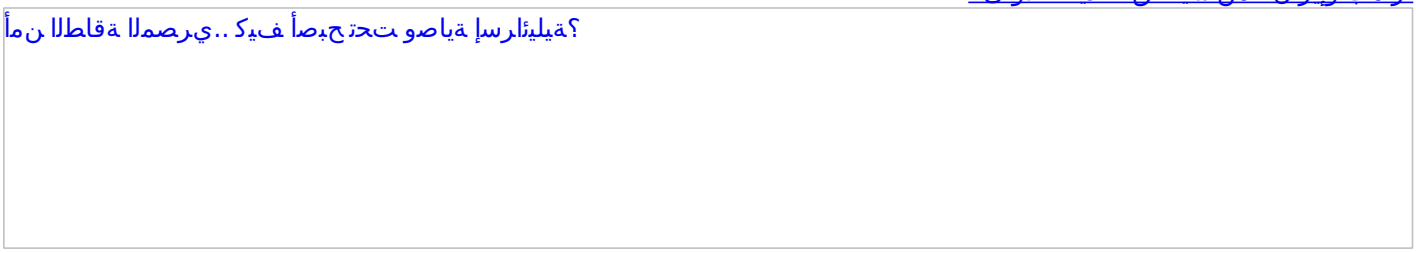

أمن الطاقة المصري.. كيف أصبح تحت وصاية إسرائيلية؟

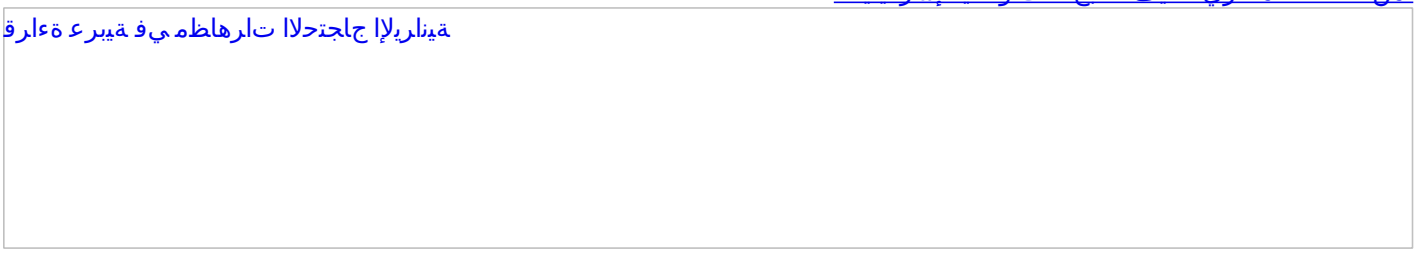

قراءة عربية في مظاهرات الاحتجاج الإيرانية

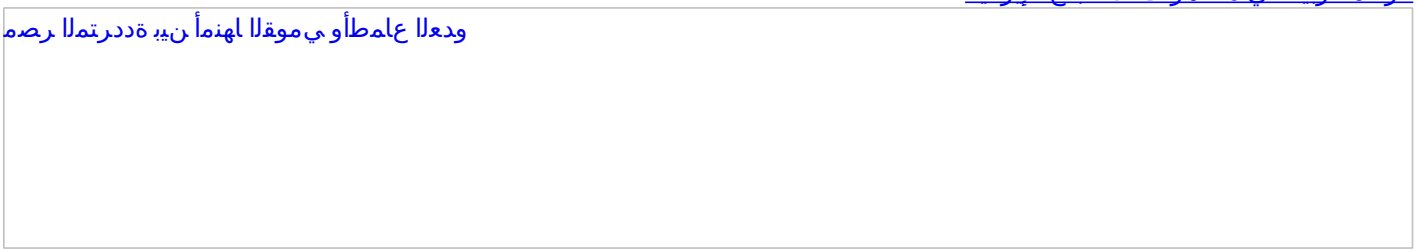

مصر المترددة بين أمنها القومي وأطماع العدو

- التكنولوجيا
- دعوة
- التنمية البشرية
- الأسرة
- ميديا

- الأخبار
- المقالات
- تقارير
- الرياضة
- تراث
- حقوق وحريات

-
-
-
-
-
-

أدخل بريدك الإلكتروني
إشترك

جميع الحقوق محفوظة لموقع نافذة مصر © 2026